المبحث الأول

الاغتراب الاجتماعي

إنَّ تصنيف أنواع الاغتراب يتم على وفق الدوافع التي تؤدي إليها مع الالتفات إلى أنَّ الأنواع كلّها ترتبط معاً وتتداخل بما يصعب الفصل أحياناً بين الاجتماعي والسياسي والنفسي والديني منها، لكن ردود الفعل الظاهرة تدفع باتجاه شكل يبدو أكثر وضوحاً[١]. لكن من المسلم به أَنَّ تناقض الذات مع الواقع قد يؤدي بالشاعر إلى الاغتراب بمعنى عدم القدرة على التغيير أو التأثير في واقعه، وعلى الرغم من تعدد أنواع الاغتراب إلا أنَّ مظاهره قد تتمثل في العزلة أو شبهها والشكوى والتطلع إلى مثال غير موجود وغير ذلك، وقد يواجه الطبع الحقائق الإنسانية ويحولها إلى جذوة ومعاناة في النفس ذلك أن (نزاع الفرد مع نفسه يتطوَّر ويتسع فيظهر كأنَّه انعكاس لنزاعه مع المجتمع كما أنَّ نزاعه مع مجتمعه يتطور ويمتد فيغدو رمزاً لتنازعه مع الوجود والقدر والمصير، فالتجربة الشعرية تنطلق من الواقع الفردي لكنها تكاد لا تنزع إلى التكامل حتى تعانق الواقع الاجتماعي وتحل فيه)[٢]. وهذه الحالة من الاغتراب تُعبِّر عن قمة الصراع الداخلي الذي يمكن أن ينتاب الفرد، فالفرد ربما يحس بالظلم أو الاضطهاد والقهر، فيشعر بالحقد إزاء المحيطين به، وقد تكون أسباب هذا الشعور حقيقية، وفي أحايين أخرى تبدو خيالية[٣] وقد يحدث الاغتراب عندما تصاب بعض قيم المجتمع بالاختراق، فتأخذ حلقات التواصل الاجتماعي بالتفكك وتظهر بوادر الرفض والاستنكار وتأخذ تلك المظاهر بتهديد الذات والجماعة.

وقد تتشكل بعض مظاهر الاغتراب بفعل عوامل داخلية تفرزها قيم المجتمع، أهمها الفقر، إذ يقول الإمام علي ﷺ (الفقر في الوطن غربة)[٤] وكان الفقر في طليعة المشاكل التي أرَّقت الشاعر وجعلته يعاني محنة الاغتراب، إذ كانت تمثل خطراً أصاب فئات واسعة

---

(١) ينظر: الحس الاغترابي في أعمال روائية لغسان كنفاني (بحث) مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، ص٢٩٦.

(٢) في الأدب والنقد، إيليا الحاوي، ص٩٦.

(٣) ينظر: دراسات سيكلوجية، د. عبد الرحمن محمد عيسوي، ص٢٨٨.

(٤) شرح نهج البلاغة، ص٤٧٨.

في ظروف موضوعية قاهرة، وبهذه الصورة، وتلك المرارة يتجسد قدر الاغتراب ويأخذ الصراع مداه من خلال تفاقم حجم الفاقة في ظل غياب منطقية التكافل الاجتماعي، فبدت مشكلة الفقر تتحول إلى همٍّ ساور الشاعر فسيطر على تفكيره أمام مسؤولياته الاجتماعية، إذ راح يذفت همومه الاغترابية من خلال مصارعة غوائل الجوع، ذلك أن وقوف الذات عاجزة أمام حاجاتها الأساسية تنمِّي هواجس الاغتراب مع الواقع، كما هي مع الذات.

ويصبح استمرار العيش كمطلب فطري للإنسان ربما يتطلب المغامرة التي لا تخرجه من دائرة الاغتراب، من خلال الشكوى التي تعد نوعاً من أنواع التنفيس من خلال مخاطبة القوم، أو مخاطبة الذات التي امتلأت حزناً وهماً، فنجد من الطبيعي أن يصور لنا الأدب المعبِّر عن خلجات النفس الإنسانية وأحاسيسها، حياة الفقر والحرمان وآثارها الاجتماعية، ذلك أن طباع الإنسان وأخلاقه وسلوكه تتأثر تأثراً كبيراً بأحداث العصر وظروفه السائدة.

لذلك أتخذ الشعراء موضوعات قصائدهم من واقعهم الاجتماعي، كونهم يمثلون الحس الوجداني المرهف لشعبهم، إذ أدى التفاوت الطبقي إلى النفور من المجتمع، وأمام صراع الإنسان مع واقعه الاجتماعي،وفي ظل غياب الحاجات المادية الأساسية للإنسان يتعمق الشعور بالاغتراب،وتزداد محنة الذات،لأن شعور الإنسان بالاغتراب عن الذات ينبع من شعوره بفقدان عنصر من العناصر المشكِّلة للطبيعة الإنسانية، كما أن تفاقم الصراع مع الذات أو حاجاتها يُعد نتيجة طبيعية لحالة الصراع الطبقي وغياب التوازن الاقتصادي، إذ ولَّدت حالة الفقر حالةً من عدم التوازن النفسي، ربما الخوف من القادم المجهول أمام المتطلبات الاجتماعية، لذلك لجأ الشعراء إلى الشكوى ووصف البؤس والفقر والحرمان، وذلك ما لمسناه عند ابن دانيال الموصلي (-٧١٠هـ) حين بث في شعره ألمه العميق شاكياً قلة رزقه من عمله في الكحالة، مطلقاً العنان لخيال المتلقي في تصوير حاله إذ يقول: (السريع)

يا سائلي عن حرفتي في الورى ... وثروتي فيهم وإفلاسي
ما حالُ مَنْ درهم إنفاقه ... يأخذه من أعين الناس[1]

(١) المختار من شعر ابن دانيال ص٩٢، وهو الحكيم شمس الدين محمد بن عبد الكريم بن دانيال الموصلي الكحال ولد بالموصل سنة (-٦٤٦هـ) ، تلقى مبادئ العلوم في مدارسها ليتخرج طبيباً كحالاً، وفي سنة (-٦٦٠هـ) دهم المغول الموصل فخرج منهزماً ليستقر في مصر ويتخذ حرفة الحكالة توفي سنة (-٧١٠هـ) ، ينظر: م. ن، ٥-٨.

وعندما هجره الناس لفقره تبصَّر فلم يجد أمامه سوى هرَّة في بيته إذ راح يشكو همَّه الممزوج بفكاهة تنم عن أسى المر الذي تولِّده حاجة الفقر حين راح يلمس شكوى الهرة في بيته ويبادلها الشكوى في مشهد اغترابي مؤلم، إذ يقول:

(السريع)

أَوحـــدني الـــدَّهرُ ولـــي هِـــرَّةٌ تُؤنِســـنُي مـــع طـــولِ أَفكـــاري
تُـــرى كلينـــا شـــاكياً حالـــهُ أشـــكو وتشـــكو قلّـــة الفـــارِ[1]

ثم يصف شدة فاقته واغترابه حين هجرته القطط والنمل –بعد هجر الناس له- والتي لم تجد ما يأويها في بيته[2].

إنَّ أبياته تلك تفيض بالعواطف الإنسانية المؤلمة، والتي نلمس في ثنايا ها معاناة الشاعر، وهو يعيش تلك التجربة المرَّة إذ أنَّ اغترابه ألجأه إلى تجسيد حاله من خلال مشهد تشبيهي مؤلم يعكس شدة بؤسه وحاجته، إذ يقول:

(السريع)

دعـــوتني للعـــرسِ يـــا سَـــيِّدي فكـــدْتُ أَنْ أَحضَـــرَ مـــن أَمـــس
وَهَـــا أَنـــا الليلـــةَ فـــي داركـــم فالكلْـــبُ مـــا يهـــربُ مـــن عـــرْسِ[3]

لا شك أَنَّ هذه الأبيات تعكس واقعه المؤلم الذي صار غريباً عنه، لذلك فقد تجاهل وجوده ودوره في الحياة من خلال وصفه نفسه وتشبيهه لها.

وقد يدفعه اغترابه إلى ندب حظه حين لازمه البؤس وسوء الحال وحيداً لا يملك من متاع الدنيا أبسطها، فيقول شاكياً:

(السريع)

مـــا عاينـــتْ عينـــايَ فـــي عُطلتـــي أفحـــش مـــن حَظِّـــي ومـــن بختـــي
قـــد بِعـــتُ عبـــدي وحصـــاني وقَـــدْ أصـــبحتُ لا فـــوقي ولا تحتـــي[4]

(١) م. ن، ص١٤٢.
(٢) ينظر: م. ن، ص٢٤٩-٢٥٠.
(٣) المختار من شعر ابن دانيال، ص١٢٣.
(٤) م. ن، ص٩٢.

في حين عمد بعض الشعراء لمواساة نفوسهم وتسليتها طالبين منها التحمل والتجمُّل في الشقاء والفقر بعدما جفَّ الكرم، ومات الكرماء، كقول ابن عدلان الموصلي (-٦٦٦هـ): (البسيط)

لا تَعْجبنَّ إذا مَا فاتكَ المطلبْ ... وعوِّدِ النَّفس أنْ تشقى وأن تَتْعبْ
إنْ دامَ ذا الفَقْر في الدُّنيا فلا تعجبْ ... مات الكرامُ وما فيهم فتى أعقب[1]

في حين نجد غيره يساوره الألم لسلب الناس فضله، حين لم يلق منهم ما تاقت له نفسه من مكانة اجتماعية، فلم يجد سوى التعبير عن مشاعر الخيبة والإخفاق والألم والسخط والمرارة، كقول ابن دانيال الموصلي:

(الخفيف)

قد عقلنا والعَقْلُ أي وثاق ... وصَبَرَنا والصَّبرُ مُرُّ المذاق
كلُّ مَنْ كانَ فاضلاً كان مثلي ... فاضلاً عند قسمة الأَرزاق[2]

إن ذلك الشعر كان يُعبِّر–حتماً- عن ثورة النفس الإنسانية تجاه انهيار القيم الإنسانية والتي تدفع بالنفس إلى الإحساس بالألم والاغتراب، وهي تصطدم بسلوك يتنافى مع طموحها، لكن هذه النفس ما تلبث أن تهدأ في بعض الأوقات وتخبو ثورتها فتميل إلى القناعة بأن لا مناص لها سوى تقبُّل الحياة وتقلباتها، لذلك اتجه بعض الشعراء ولاسيما في لحظات الهدوء النفسي إلى أطلاق الدعوات الصريحة لمعايشة الواقع، في محاولة منهم لإقناع النفس الهائمة المغتربة أولاً، وأخذت تلك الدعوات أشكالاً متعددة وصوراً مختلفة، وما ذلك إلا انعكاس لاغتراب النفس من خلال الاستسلام لجور الزمان الذي لا يرجى اعتداله، ووجدت تلك الدعوات صدى واسعاً في نفوس الشعراء، مما يعني تمكن روح اليأس من نفوسهم والاعتراف بالعجز والانزواء، من خلال محاولة إقناع النفس بالصبر،

(١) النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، ٢٢٦/٧، وهو علي بن عدلان أبو الحسن عفيف الدين الموصلي النحوي كان عالماً فاضلاً وأديباً متفنناً شاعراً، اشتهر بحل الأحاجي والألغاز وله في ذلك تصانيف منها كتاب (حل المترجم) وكتاب (عقلة المجتاز في حل الألغاز) وقد فُقد ديوانه ولم يبق منه سوى قصائد ومقطوعات متناثرة في كتب السير والأدب، ينظر: عيون التواريخ للكتبي، ٣٧٢/٢٠، ذيل مرآة الزمان لليونيني ٣٩٢/٢.

(٢) المختار ص٤٠.

كقول غرس الدين الإربلـــــــــي (-٦٧٩هـ)،

(الكامل)

صـبراً عسـى يـا نفـسُ تلقـي راحـةً ... بعـــد الأيـــاسِ وتـــذهبُ الآلامُ
فالصـبرُ خيـرُ مـن توجـعِ شـامتٍ ... يُبـدي التـأوه مـا بـه إيـلام
لا تسـأل الأيـام دفـعَ مُلمـةٍ ... إنَّ الشـدائدَ مـا لهـنَّ دوام[1]

ولا شك أَن نوازع الاغتراب تبقى تتسع في مداها أو تضيق على وفق اختلاف الرؤية الذاتية وابتعادها عن أطار الوعي العام لثقافة الشاعر ورفضها القيم السائدة الممثلة لرؤية الجماعة، على أن الإنسان يكتسب بعض الصفات التي يصطبغ بها المجتمع الذي يعايشه، ولكن تبقى طاقاته محدودة في ظل بعض الظروف القاهرة، فتغدو الذات أحياناً غير قادرة على التكيف مع الواقع، ولاسيما في عصر سادَ فيه الانشقاق والاضطراب والتناقض، وبات الإحساس بعدم التواؤم مع البيئة مسيطراً على الشاعر المرهف لوجود هوَّة تفصله عن مجتمعه، إذ بات من الطبيعي أن يصاحب ذلك الاضطراب صراعاً واضحاً أو خفياً بين القوميات من خلال إمكانية التعامل مع بعض العادات والتقاليد الطارئة، والتي كادت تنفي أو تشوَه العرف الاجتماعي العربي الذي تبنَّى الإسلام أذقى قيمه، وجعلها محور تعاليمه ومنطلق مسيرته الخالدة، فثمة حقائق باتت تقرر أن من دواعي اغتراب الشاعر ذلك التناقض الحاصل بين بيئته الخاصة والواقع المحيط به، كما أَنَّ أي انقلاب حاصل في معايير وموازين مجتمع معين قد يدفع بالشاعر والمثقف عامة إلى الاغتراب، ولأنَّ الفنان المبدع يمتلك القدرة على التعبير عن فرديته وتصوير ما يجري داخل مجتمعه وعصره عن طريق الفن[2]، فقد لاحظنا تباين ردود فعل الشعراء تجاه رفضهم لتلك القيم الطارئة في المجتمع.

إذ يدفع العوز المادي والاغتراب الاجتماعي الشاعر إلى الخوض في سلوكيات لا تنم عن قناعة، إنما هي لا تعدو أن تكون محاولة منه لفك ذلك الطوق الذي تكبلت به نفسه،

---

(١) تالي كتاب وفيات الأعيان، الصفاعي ١٢٧/١، هو العلامة أبو بكر محمد بن إبراهيم غرس الدين الإربلي كان ديناً صالحاً كثير الذكر والتلاوة مقتدرا على نظم الشعر وعمل الألغاز من نظمه الألفية في الألغاز المخفية، توفي بدمشق سنة (-٦٧٩ هـ) ، ينظر: ذيل مرآة الزمان، ٧٩/٤، تاريخ الأدب العربي في العراق، عباس العزاوي، ٢١٢/١.

(٢) ينظر: الإبداع في الفن، قاسم حسين صالح ص٦٦.

فيلجأ إلى مدح كل مَنْ تقنعه نفسه أو تترجى فيه ما يفك طوقها، ناسياً أو متناسياً ما اتصف به الممدوح من سجايا قد يرفضها المجتمع ولا يرتضيها هو، لكنه يسعى إلى مَنْ يكفل عوزه، وربما يجد الشاعر في شد رحاله إلى أبواب السلطة بحثاً عن مكانة اجتماعية محاولة لمغالبة اغترابه الاجتماعي، فإن خاب ظنه في ممدوحه، تركه غير آسف، منشغلاً في البحث عن ممدوح آخر علّه يجد فيه ما تطلبه نفسه، كقول أحمد بن ملاعب الإربلي (-٦٣٤هـ): (الخفيف)

كان ظنِّي متى قصدتُ علياً ... في مُهِمٍّ يَبَرُّ لي مقصودي
خاب ظنِّي فما عَليَّ جُنَاحٌ ... إن تواليتُ بعدها ليزيد[1]

أما ابن الظهير الإربلي (-٦٧٧هـ) فقد شكى الفقر والعوز وأعلن الاستجداء صراحة من ممدوحيه، كقوله في مدح أبي البقاء شرف الدين ابن المستوفي (-٦٣٧هـ) حين راح يلتمس منه لحفيفة: (السريع)

يا شرفَ الدِّين الجوادَ الذي ... يُمْنَاه بالمعروفِ معرُوفَهْ
ومَنْ له نفسٌ على كُلِّ أَنْـ ... ـواعِ التُّقى والبرِّ موقُوفَهْ
عبْدُكَ لا شيءَ على رأْسِهِ ... هامتُه في الحُكْمِ مكْشُوفَهْ
وهو على كثرةِ تَنْقيلِه ... يرجو من الإنعامِ لحفيفَهُ
فاسمح بها واسمعْ ثناءً له ... أجادَ فيه الفِكْرُ تالِيفَهْ[2]

وكأن الشاعر أتخذ من ذلك الأسلوب منهجاً يسد به عوزه عندما غدا يناشد الممدوح نفسه ملتمساً منه فروة، إذ يقول: (مجزوء الكامل)

يا ماجداً لَبَّى نَدَا ... هُ المُعْتَفِي قَبْلَ النِّدا
ومن استرق بجودِه ... ونوالِه حُرَّ الثنَا

(١) قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، لابن الشعار الموصلي، م١، ج١، ص٣٢٧، وهو احمد بن ملاعب ابن علوي أبو علي الإربلي، أصله من الموصل، كيِّساً مطبوعاً، كان يكتب القصص بالأجر، استشهد بإربل حين دخلها التتار سنة (-٦٣٤هـ) ، ينظر: م. ن، ص٣٢٧-٣٢٨.

(٢) ديوانه، تحقيق: د. عبد الرزاق حويزي ص١٦٨، واللحفيفة هي ما يلتحف به من الدثار فوق الثياب، وابن الظهير الأربلي من شعراء القرن السابع ولد في إربل عام (٦٠٢هـ) ورحل إلى بغداد لطلب العلم، ثم أستقر به المقام في دمشق إذ تولى التدريس في المدرسة القايمازية، له مختصر أمثال الشريف الرضي ومحقق الأمل في المنتخب من المنتخل، توفي عام (٦٧٧هـ) ، ينظر: م. ن، ص٥-٦.

البـــــردُ قـــــد وافـــــى يُجَـــــرّ ... رُ ذيـــــــل تيـــــــهٍ واعتِـــــــدَا
وجيوُشُـــــــه قـــــــدْ أَقْبلَـــــــتْ ... فاســـــــتوْعَبتْ كُـــــــلَّ الفضـــــــا
والصَّـــــــبْرُ مُنْـــــــذُ رأى بَقـــــــا ... ءَ البـــــــــرْدِ أذَّنَ بالفنـــــــــا
فَـــــــانعمْ عَلـــــــيَّ بفـــــــروةٍ ... تعـــــدى علـــــى بَـــــرْد الشِّـــــتا[1]

ويبدو أنَّه كلما اشتدت نار أسى الاغتراب في نفس الشاعر لتردي الوضع الاجتماعي، اتجه الشاعر صوب المبالغة والغلو في المديح، حين يتخذ من سوء ذلك الحال مسوِّغاً لذلك التبجيل، حتى وصل الحال ببعض الشعراء إلى التعالي على بعض الأعراف والمعتقدات[2]، باثاً في ثنايا مدحياته شكواه، كقول يحيى بن محمد الجزري الموصلي (كان حياً سنة ٦٣٢هـ):

(السريع)

مـــولاي مُحْيـــيْ الـــدِّيْن يـــا ذا الـــذيْ ... عَـــمَّ الـــورَى إفضـــالُهُ الشَّـــاملُ
وعـــدْتُ نَفْســـي منـــك آمالَهـــا ... وعُرْفُـــكَ المعـــرُوفُ لـــي كافِـــلُ
فخُـــذْ ثنـــائي واغتـــنمْ دعـــوتي ... واســـمحْ بتَعْجِيْـــلِ الـــذي آمُـــلُ
فخيْـــرُ بِـــرِّ المـــرْءِ تعجيلُـــهُ ... وعَنْـــك يُـــرْوَى الكـــرُمُ الكامِـــلُ[3]

وفي مدحيات ابن الصيقل الجزري (-٧٠١هـ) نجد الشاعر يصف إحساسه بالغربة الدائمة لمكابدته الفقر المدقع، وضياع آماله، إذ يقول:

(البسيط)

(١) ديوانه، ص٦٥، وذهب محقق الديوان إلى أن هذا المديح يُعدُّ وسيلة للتكسب والارتزاق ومطية لتكديس الأموال معززاً رأيه بأربع قصائد وجدت في قلائد الجمان صرَّح فيها الشاعر بطلب حاجته، و هذا الرأي يخالف ما ذهب إليه د. ناظم رشيد في قوله (لم يسخِّر ابن الظهير شعره للاستجداء أو التكسب كما يفعل الكثيرون ولم يجر في ركاب أرباب السلطة وسراة القوم وتملقاً وطلباً للمال والجاه) ينظر: ديوانه ص٤٩-٦٥، وينظر: ديوانه تحقيق: د. ناظم رشيد، ص١٠.

(٢) وأكثر ما نجد ذلك الوصف عند ابن دنينير اللخمي، ينظر: ديوانه، ص٤٥، ٤٨، ٥٩.

(٣) قلائد الجمان م٨، ج١٠، ص٤٨-٤٩، وهو يحيى بن محمد بن عمر بن محمد الكاتب الجزري الموصلي ولد سنة (٥٥١ هـ) وانتقل إلى الموصل وكان يتولى بقلعتها كتابة الرقاع كان حياً سنة (٦٣٢ هـ) ، ينظر: م. ن، ص٤٦.

إنِّـي غريـبٌ وإنِّـي مُـذْ خُلقـتُ لقـيً أَكابـد الفقـر قسـراً كلمـا قسـرا
وصـبيتي يـومهُم بـؤس يشـتتهمُ يُخلـفُ الرَّبـعَ صـفراً كلمـا صـفرا
فـاطردْ خيـول الأذى فمـا بَرحَـتْ تُصـافحُ الـذِّل قهـراً كلمـا قهـرا
واسـمحْ فأَنـت الـذي مـازال مقتـدراً يجـاوزُ الحـدَّ قـدراً كلمـا قـدرا[1]

وحين لم يجد الشاعر منالـه عند ممدوحه يشعر بأسى وألم عميقين إذ تعتصر روحه أَلماً ويشتد اغترابه،عندما يعلن بدء رحلته بحثاً عن ممدوح آخر[2]،وما هذا المدح،أو تلك المبالغة،أو ذلك التقلب في وجهة الشاعر ومشاعره إلاَّ قلق ينم عن عمق دلالات الاغتراب في نفس الشاعر،وما وصفهم بتجار الأدب إلاَّ مغالطة فارقها الصواب[3] وربما يتناسب ذلك الوصف وحال شعراء آخرين كالنُّشابي (-٦٥٦ هـ) مثلاً حين جعل من نفسه في بداياته الشـعرية ناقـداً اجتماعيـاً وسياسـياً كثيـر التعـرض لسـلوكيات المجتمـع وأربـاب السياسة،وأصحاب النفوذ في بيئته التي نشأ فيها،مما يدل على عمق حسه الاغترابي،وهو يعيش وسط ذلك المجتمع،إذ حاول أن يعبِّر عن رفضه لهذه القيم وتلك السياسات[4]. وما وجهته الأخرى إلا هروب من غربته إلى غربة أعمق وأحلك حين أغرقته الدنيا بزخرفها

(١) شعر الجزري ص٦٥، وهو معد بن نصر الله الملقب بشمس الدين المكنى بأبي الندى والمعروف بابن الصيقل الجزري، سكن بغداد، وصف بأنه من اللغويين والنحاة وكان متفنناً في علوم كثيرة ومن يطالع مقاماته يجزم بسعة المعارف التي أتقنها، من آثاره المقامات الزينية، توفي سنة (٧٠١هـ) ، ينظر: م. ن، ص٥-١٦.

(٢) ينظر: قلائد الجمان، مج ٢، ج٣/٣٩١.

(٣) ذلك ما أشارت إليه باحثة محدثة حين وصفتهم بأنهم تجار أدب يبيعون أفراحاً وأحزاناً منظومة، كما أَن لفظة تاجر تتضمن بداخلها دلالة الغنى أولاً، وأن أغلب الشعراء الذين انتهجوا هذا السلوك، المدح النفعي أو الاستجداء -إن صح التعبير- كان بفعل اغترابهم الاجتماعي، فإن وافق ذلك الرأي بعض حال الشعراء، فإنه يخالف حتماً حال غيرهم، إذ لا يمكن أن يتظاهر الشاعر بالاغتراب كما أدعت الباحثة ووصفتهم بالشعراء النفعيين كونه شعوراً نفسياً تتحكم فيه مؤثرات خارجية وداخلية كما سمَّت هذا النوع من الاغتراب بالغربة المادية، ولست متأكداً إن كان بإمكان هذا المصطلح أن يزاحم المفاهيم الاغترابية وتسمياتها، ينظر: الغربة والحنين في شعر القرنين السابع والثامن، زينب فاضل النعيمي، (أطروحة دكتوراه) ص١١٥.

(٤) ينظر: ديوانه ص٩، ٣٠٧، ٣٢٩، ٣٤٥، ٣٤٧، وهو مجد الدين أسعد بن إبراهيم بن الحسن النُّشابي نسبة إلى النُّشاب وهو النبل التي كان يصنعها ويبيعها في بداية حياته، ولد بإربل سنة (٥٨٢ هـ) تنقل في بلاد الشام والجزيرة، وعاد لإربل وتولى كتابة الأنشاء سنة (٦١٥ هـ) ، اشتهر بمدحه المستنصر ووزيره احمد بن الناقد توفي سنة (٦٥٦هـ) ، ينظر: م. ن، ٦-٢٥.

وابتعد عن المجتمع وقيمه إلى مجتمع آخر رسم ملاحمه بخيوط خياله، وذلك بعد رحيله من مدينة إربل ليكون شاعراً من شعراء ديوان الخلافة العباسية أختص بمدح الخلفاء والوزراء في المناسبات المختلفة، وبالغ في مدح الخليفة مبالغة كبيرة، حتى أنَّه راح يتخيل اقتدار الخليفة ما يستحيل حدوثه، كقوله في مدح المستنصر:

(الطويل)

يَظُنُّ يقيناً لو تسنّى لأَدمٍ ... لما كانَ للشّيطانِ فيه تَعلُّقُ
ولو أَنَّ طوفانَ النّدى من نوالِهِ ... لنوحٍ، لكان الفُلكُ بالجود يَغرقُ
ولو أَنَّ موسى يستعينُ ببأسه ... لما كانَ يومَ الطُّورِ بالخوفِ يصعقُ
ولو أَمَّهُ عيسى المسيحُ وأمُّهُ ... لما افترقا من قولِ مَن ليس يفرُق[1]

ويبدو أنَّه في مدحه نسى أو تناسى ما يعانيه الناس من فقر وعوز فراح يبالغ في عدل الوزير أحمد بن الناقد[2] (-٦٤٢هـ) إذ يقول:

(الطويل)

يقولون: كِسرى لم يكنْ فوقَ عدلِهِ ... رئيسٌ ولِمْ قالوا، وأنتَ رئيسُهُ[3]

فإن كان الوزير كذلك فلما اشتكى الناس الفقر والعوز والحرمان. وقد البس الخليفة من الصفات ما جعله في صفاف الأنبياء، فهو يغِيرُ على أمواله حتى لا يدع إنساناً يشكو الفقر والحرمان، بفضل كرمه وجوده، فالناس يحجون إليه قصداً، كما حجوا البيت الحرام، إذ يقول

(الوافر)

(١) م. ن، ص٢١٩.

(٢) هو نصر الدين أحمد بن الناقد، كان في ابتداء أمره وكيلاً للخليفة المستنصر بالله، ثم أنتقل إلى أستاذية الدار، ومنها إلى الوزارة بعد عزل الوزير مؤيد الدين محمد القمي سنة (٦٢٩ هـ) ، توفي في سنة (٦٤٢هـ) ، ينظر: البداية النهاية، ١٦٥/١٣، النجوم الزاهرة، ٣٥٠/٦.

(٣) ديوانه ص٢٨٣.

أَتــى رَجَــبٌ يُرِّجــبُ مِنــكَ فضــلاً ... لـــهُ فضـــلٌ علـــى أَيـــدي الغَمـــامِ
يَحُــجُّ النّــاسُ فيــه إليــكَ قصْــداً ... كمــا حَجَّــتْ إلــى البيــتِ الحــرامِ
فــذاك الحَــجُّ آجِلُــهُ رَجــاءٌ ... وحَجُّــكَ فيــه تعجيــلُ الَمــرامِ
وتُنحــرُ فيــه اليــاسُ العطايــا ... كنحــر البُــدْنِ واجبــةً دوامــي
ودونَ مِنــى مُنــاهُ ضــجيجُ وفــدٍ ... يُلبِّــي بالتَّحيــةِ والسَّــلامِ[1]

ويبدو أَنَّ نفسه المغتربة ساهمت في سعيه لإذلالها من خلال اعترافه بغلوه في مديحه،إذ يرى أَنَّ تعظيم آلاء الخليفة وقدسيته دليل حبه وتعبده له،ويرى في ذلك الغلو حقاً، بعدما أحياه الخليفة وأوجده من العدم[2].فهو العادل الذي فاق بعدله مَنْ ذكر التاريخ من أرباب العدل،إذ ساد الأمان في عصره حتى آلفت الشاة الأَسد وحالفته[3] ويبتعد خياله كثيراً في رسم صورة الممدوح حتى كاد يجعله في مقام النبي ﷺ،إذ يقول:

(المتقارب)

جلالــــةُ هيبــــةِ هــــذا المقَــــامْ ... تُحيِّــــرُ عــــالِمَ عِلْــــمِ الكَــــلامْ
كــــأَنَّ المُنــــاجي بــــهِ قائمــــاً ... يُنــــاجي النَّبــــيَّ عليــــه السَّــــلامْ[4]

ويبتعد به الخيال كثيراً حين يُضفي على الممدوح من الصفات ما فاق بها الأنبياء ورجال التاريخ العظام،فهو الذي اعتاد أن ينبئ الناس بالغيبيات ولو أدعى الوحي من الله تعالى ما كذَّبه أَحد لثقة الناس به وهو صاحب العصروالزمان وإمامهما والكون بأجرامه مُسخر له يسري بأوامره[5]، ويمضي في مدحه حين تجاوز المعقول بخياله الجامح، مدفوعاً بنزَعته المادية ورغبته في الجائزة الكبرى، وبفعل الحس الاغترابي الذي طغى على النص الإبداعي المساق إلى الممدوح، إذ جعل الممدوح هو المحيي والمميت، والرازق العباد في

(١) ديوانه ص١٩٦، يرجّب: يعظِّم، البدن: جمع بَدْنة: الناقة أو البقرة التي تنحر بمكة، الواجبة: الساقطة على الأرض، وينظر: ص١٢٤، ١٨٧، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠.
(٢) ينظر: م. ن، ص١٨٧-١٨٨.
(٣) ينظر: م. ن، ص١٣٠، ١٧١، ١٨٦-١٨٧، ٢٠٦، ٢٣٦.
(٤) م. ن، ص٣٣١.
(٥) ينظر: ديوانه ص٢٤٠، وينظر: ص١٢٣، ١٢٥-١٢٦، ١٣٠-١٣١، ١٣٣، ١٥٣-١٥٤، ١٥٥، ٢٥٢.

الأرض، فغدا يناديه بنداء العبد، إذ يقول:

(الوافر)

ولـــولا واجـــبُ التَّقـــوى علينـــا لناديـنـــاكَ: يـــا محيـــي العِظـــامِ[1]

ويبدو أَن هلهلة أوضاع الخليفة كانت تسمح له بتقبل تلك الأكاذيب والأَوهام، دون أن يشعر بأسباب ودوافع تلك المبالغات، كما أن الشعر العربي لم يخل من تلك المبالغات عبر عصوره، ولاسيما العصر العباسي.

وقد ينشأ الاغتراب في أحد جوانبه نتيجة لمعاناة الإنسان مشكلات عصره وأَزماته، ووعيه، واكتشافه التناقضات التي تسود المجتمع، دون أن يكون قادراً على إصلاح الوضع المغلوط[2]،فيغترب الشاعر من مجتمعه الذي تهاوت فيه القيم الحقيقية وركنت محلها قيم زائفة بديلة، فالشعر يخبر ويفصح عن مكونات ذاته والحياة بأَكملها، ويعمل على أيقاظ الحس والشعور من خلال توهجه وتفاعله مع الزمن والأحداث، فمن خلال الرؤية الجمالية والفنية في القصيدة يُعبِّر عن الإنسانية عامة، والشاعر في كل هذا يحيل التاريخ أحداثاً وأفكاراً وعواطف إلى قيمة دائمة، لاسيما حين يتجلى الموضوع من خلال الذات مع ما يصاحب ذلك من عملية تحويل الدم إلى حبر[3].

فالقصيدة ليست كلمات صنفت وموسيقى وإيقاع فني فحسب،إنما هي حالة حياتية أخرى بكل ما تحمل من مشاعر وعواطف وأَفكار وانفعالات نفسية (فللقصيدة حياتها الفنية الخاصة من أن تكون معزولة عن مصادرها الاجتماعية والنفسية، وهي لا تخضع إلاَّ لقوانينها الخاصة التي تفرض عملية الإبداع)[4].

وعندما يصاب المجتمع بالتحلل الاجتماعي وتسود فيه بعض القيم الطارئة والدخيلة عليه، تغلب عليه وضعية تتلاشى معها أهمية المعايير ويتضاءل تبعاً لذلك التزام الناس بها في سلوكهم أو في أحكامهم، وهكذا فالاغتراب المتمخض من هذه الحالة يدفع بالأفراد إلى

---

(١) ديوانـــه ص١٩٧، وينظـــر: ص١٢٢، ١٦٦، ١٧١، ١٧٨، ١٨٨-١٨٩، ٢٠٠، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٣-٢٢٤، ٢٤٨، ٢٧٢، ٢٨٣.

(٢) ينظر: ابن باجة وفلسفة الاغتراب، محمد إبراهيم الفيومي ص٧٢.

(٣) ينظر: الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، اليزابيث، ص٢٧.

(٤) أفاعي الفردوس، إلياس أبو شبكة، ص٥.

أن يتوقعون النجاح عند إسقاطهم المعايير، أي أن النجاح في بلوغ الأهداف الفردية يتطلب في الحالات الاجتماعية المريضة نماذج من السلوك الإنساني غير المقبول معيارياً.

ولعل من أشد درجات الاغتراب إيلاماً ذلك الشعور الذي يدفع الشاعر إلى الظن بأَنَّ حبال الود قد تقطعت وصالها بينه وبين زوجته وإحساسه العميق بأَنها أَبعد الناس إليه مودةً، وتعد علاقة الزوجة بزوجها من أَبرز العلاقات الاجتماعية في الإطار الأسري، كونها تمثل محور البناء الاجتماعي وركيزة أَساسية تقوم على أَساس الحياة المشتركة وتستمد ثقافتها من الإطار القيمي العام(١).

وفي ظل الظروف الذاتية التي تخترق النسيج الأسري تبدو مظاهر الاغتراب الاجتماعي في إطار العلاقة الزوجية من خلال تعدد الرؤى في التعامل مع معطيات الحياة المختلفة وانعكاساتها على السلوك الذاتي على مستوى هذه العلاقة، فتبدو نوازع التوتر والاغتراب في العلاقة بينهما، وينشأ الخلاف في كثير من جوانب الحياة الأسرية فتتشكل رؤية مغتربة تترسخ في الوعي العام نتيجة لتلك الخلافات.

وفي ظل هذه الرؤية وأبعادها الاجتماعية تبرز مظاهر الاغتراب من خلال الخلافات الزوجية التي تعددت أسبابها،وقد تتعرض الذات إزاء هذه الرؤية إلى ضغوط اجتماعية تؤجج حالة الصراع النفسي والاجتماعي في سبيل مواكبة متطلبات الحياة. إذ يُعدُّ ذلك الخلاف والافتراق بين الزوج وزوجته نمطاً من أَنماط الاغتراب(٢)، لذلك نجد ابن دانيال يشكو فعال زوجته إلى قاضٍ، إذ يقول:

(الخفيف)

قُـــل لِقاضـــي الفُســـوقِ والإدبـــار عَضُـــدِ البُلـــهِ عُمْـــدَةِ الفُجَّـــارِ

لـــكَ أَشـــكو مـــن زوْجـــةٍ صَـــيَّرتني غائبـــاً بـــين ســـائرِ الحُضَّـــارِ
غَيَّبتنـــي عَلـــيَّ مـــا أَطمعتَنـــي فأَنـــا اليـــومَ مُفكِـــرٌ فـــي انتظـــاري

(١) ينظر: الانثروبولوجيا النفسية، ص٤٤٢.
(٢) ينظر: الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً (بحث) ص٣١.

فنهـــــاري مـــــن الـــــبَلادة ليـــــلٌ فـــي التَّســـاوي والليـــلُ مثـــلُ النهـــارِ[١]

إن طبيعة تلك العلاقة الزوجية تبدو مشوبة بالتوترات،ربما بفعل حيثيات خفية تُجسد حالات المفارقة من خلال المعايشة اليومية،لذلك بدا التوتر النفسي طافحاً على النص.

وقد يشعر الإنسان بالوهن والخيبة عندما تخفت صورة الأب المثال في عين الشاعر، ولاسيما عندما يجهد ذلك الأب إلى تجاهل تلك الأحاسيس، ويعمد على ترسيخها في نفس الابن من خلال تجاهله والمبالغة في العزف على أوتار اللوم، وذلك حس اغترابي يجسده ابن دانيال حين راح يشكو والده، بقوله:

(السريع)

ولـــــي أَبٌ يجهَـــلُ قـــدري ولـــو كُنـــتُ أَجـــلَّ النَّـــاس فـــي العلـــمِ
يُلـــومُني إذ لسْـــتُ شِـــبهاَ لـــهُ ويُحمِـــلُ الأَمـــر علـــى الظلـــمِ
وكيـــفَ أَغـــدو شِـــبْهَهُ والـــورى يقـــولُ لـــي إنَّ أَبـــي أُمِّـــي[٢]

وقد يدفع التأزم النفسي الشاعر في فجوة الانفصال بين العلاقات الاجتماعية نحو نفث همومه واغترابه من خلال وصف حال الأصدقاء وكشف اللثام عن تلك الإبعاد الإنسانية، إذ أَنَّ من مهام الفن نقل التجربة الفردية والاجتماعية إلى الآخرين[٣]، من خلال عرض أهواء مجتمعه ونوازع نفسه التي تعكس اغترابه في مجتمعه، وتطَّرد المعاناة من الأصدقاء وتمتد آفاقها لتشكل أُطراً جديدة مشوبة بالحقد والضغينة، والتي لا تستند إلى ما يسوغها من مبررات سوى دوافع الشر التي صبغت القلوب بالسواد، لتبقى المجافاة الاغترابية تحكم العلاقات الاجتماعية بين الناس، وفي زحام تلك التناقضات نجد أَبا إسحاق الموصلي (-٦٢٨ هـ) يستغرب حال الناس حين راح يترجى الصديق الصدوق فيهم، فلم يطعموه سوى ودَّ لسان ضمر خلف ظهره غدراً ملأ القلوب، إذ يقول:

(المتقارب)

(١) المختار ص١٦١-١٦٢.
(٢) م. ن، ص١٨٦.
(٣) ينظر: تطور النقد الأدبي الحديث، كارلونيوفيللو، ترجمة: سعد يونس، ص١٢٢.

ولمَّـــا تفقّـــدْتُ أَهْـــلَ الزَّمَـــانِ لأَصْـــحَبَ مِـــنهُمْ صـــديقاً صـــدُوقا
ولـــــمْ أَرَ إلاَّ ودُوْدَ اللســـــانِ يُظْهِـــرُ بـــرّاً ويُخْفـــيْ عُقُوقـــا
صَـــحِبْتُ الـــدَّفاتِرَ مُسْتأَنِســـاً بِهـــنَّ فكُـــنَّ رفِيْقـــاً رَفِيْقـــا[1]

في حين يرى أبو الفضائل بن أبي البركات الموصلي الحموي (-٦٤٣هـ) أنَّ ما في الناس من تصدق صحبته بعدما ذاق مرَّ الغدر من ضياع صحبته ومودته بين الناس، إذ يقول:

(الكامل)

أَنـا إنْ عَجِبْتُ لمـن أَضـاع مـودَّتي فَمـــنَ المُضـــيْعِ وفِعْلـــهِ أَنَـــا اعْجَـــبُ
مـا فـي البريَّـةِ كُلِّهِـمْ مِـنْ واحـدٍ يُرْجَـى ولا فـي النَّـاسِ شـخْصٌ يُصْـحَبُ[2]

وتُعدُّ الرابطة الأخلاقية التي تصل الإنسان بمجتمعه من أبرز الخصائص الإنسانية المميزة، الأمر الذي يجعلها ذات طبيعة اجتماعية، فالإنسان لا يخضع لظروفه المادية المفروضة عليه قدر خضوعه إلى ضمير يسمو على ذاته، ذلك هو الضمير الاجتماعي الذي يفرض عليه خضوعاً للمجتمع[3]، لذلك غدونا نرى أَنَّ البواعث العامة للاغتراب أَضحت تشكل أنماطاً متعددة من مشاعر الرفض أو عدم التوافق بين الذات والآخر، وتكرست جدلية الصراع بين الواقع السائد والواقع المأمول، لتعبِّر عن مدى التفاوت القائم بين الواقعين، إذ كلما كان الإحساس بحقيقة هذا التفاوت وإدراك أبعاده النفسية عميقاً، كانت فجوة التباعد أوسع في نفس الشاعر، ذلك أنَّ تكوينه النفسي –باد عاء علماء النفس- تكوين مميز يسيِّره الإحساس المرهف والخيال الخارق، وهذا التكوين الخاص والمميز يدفع

(١) قلائد الجمان مج ١، ج١/ ١٢٠-١٢١، وهو إبراهيم بن عبد الكريم بن أبي السعادات، أبو إسحاق بن أبي محمد الموصلي الفقيه الحنفي الكاتب ولد سنة (٥٩٥ هـ) تكلم في المسائل الخلافية وناظر الفقهاء، وفاق أبناء جنسه في الأدب والعربية، كتب الأنشاء بديوان الموصل، وكان نبيهاً فاضلاً عاقلاً متنسكاً ورعاً توفي سنة (٦٢٨هـ) ، ينظر: م. ن، مج١، ١/١١٤-١١٥.

(٢) قلائد الجمان، مج٣، ج٤، ص١٦، وهو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن هبة الله الموصلي ولد سنة (٥٩٧ هـ) درس الفقه بحلب وسافر إلى دمشق توفي ببيت المقدس سنة (٦٤٣ هـ) ، ينظر: م. ن، ص١٢.

(٣) ينظر: الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً، (بحث) ص٢٥.

بالشاعر إلى حالة من القلق الدائم والتوتر المستمر، وتبعاً لذلك قيل إنَّ أعصاب البشر تحت جلودهم، أما الشعراء فأعصابهم فوق جلودهم[١]، ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن تلك الحقيقة –إن كانت- تبقى نسبية بين شخص وآخر.

لذلك نجد أن ملامح الاغتراب الاجتماعي تتصعد في نفس الشاعر من خلال خيانات الأصدقاء المتمثلة في الجفاء والغدر والنسيان، فتعلو حسرة الشاعر لهذا الجحود، وذلك النكران الذي يشْعِره بفقدان الأمان والوفاء، وهذا الإحساس جعل ابن دنينير اللخمي يبحث عن أُنسته وسط اغترابه بعدما يأس من إيجادهافي كنف صديق، إذ يقول:

(مخلع البسيط)

لا تطلبنَّ الصديقَ يوماً ... فإسْمُهُ مالهُ مُسَمَّى
مَنْ رامَ مِنْ دهرِهِ صديقاً ... أَخا وادٍ يموتُ همَّا
إذا سقيتَ الخليلَ شُهداً ... على صفاءٍ سَقاكَ سُمَّا[٢]

أما أبو عبد الله ابن أبي المعالي الواسطي (-٦٣٧هـ) فقد ذاق أسى الغدر والخيانة مما دعته إلى أطلاق صيحات عالية محذراً فيها من الاغترار بالود الكاذب، إذ يقول: (البسيط)

يا مَنْ يُكاثِرُ بالإخوان مُعْتَقِداً ... أَنَّ المَوَدَّة من أسباب قُوَّتِهِ
لا تغْتَرَّ ببنيْ الأَيَّامِ مُعْتَمِداً ... على مودَّة من تُغْرى بِصُحْبَتِه
وَكُنْ على حَذَرٍ ممَّنْ تُعاشِرُهُ ... فالدَّهْرُ أنكَدُ أنْ تصفوُ لعشَرتهِ
كم من خليلينِ طالَ الوُدُّ بينُهما ... عادّا عدُوَّيْنِ كُلٌّ حِلْفُ جفوتِهِ[٣]

(١) ينظر: الشعر بين الرؤيا والتشكيل، عبد العزيز المقالح، ص٢٦.

(٢) ديوان ابن دنينير اللخمي، جاسم محمد جاسم، أطروحة دكتوراه، ص٤١٣، وهو أبو إسماعيل إبراهيم بن محمد ابن أحمد المعروف بابن دنيزير اللخمي الموصلي من الشعراء المشهورين معروف لدى سلاطين الدولتين الزنكيةوالأيوبية توفي سنة (٦٢٧هـ) ، ينظر: م. ن، ص٢١-٢٧.

(٣) قلائد الجمان، مج ٦، ج٧، ص٨٩، وهو محمد بن سعيد بن علي بن الحجاج أبو عبد الله بن أبي المعالي الواسطي، ولد سنة (٥٥٨ هـ) ، شيخ صالح ثقة من مشاهير أصحاب الحديث جمع عدة كتب منها تاريخاً ذيَّل به على تاريخ السمعاني المذيل على تاريخ الخطيب، إشعاره متظمنة الزهد والوعظ توفي سنة (٦٣٧هـ) ، ينظر: م. ن، ص٨٦-٨٧.

وقد أَلزمته حوادث الأيام اغتراب الناس بعدما كشفت له زيف وفائهم وغدرهم، إذ يقول:

(الطويل)

خبُـرْتُ بنـيْ الأيُّـامِ طُـرَّاً فلـم أَجـدْ صـديقاً صَـدُوْقاً مُسْـعداً فـي النَّوائـبِ
وأَصْـفَيْتُهُمْ منِّـي الـوُدَاد فقـابلُوا صَـفاءَ وُداديْ بالقـذَى والشَّـوائبِ
ومـا أختـرْتُ مـنْهُم صـاحباً وارتضـيْتُهُ فأحمدْتُـهُ فـي فعِلـهِ والعواقـبِ[1]

وقد أذهل حال الناس وتقلب طباعهم الشاعر يوسف بن نفيس بن أبي المعـالي المرَّلي (-٦٣٨هـ)، حين تبعوا الهوى والمطامع وأحلَّوا الخيانة والود الكاذب، إذ يقول:

(الكامل)

حـالي وحَادثَـةُ الزَّمـان كلاهُمَـا عَجـبٌ وذا أمْـرٌ علـيَّ يهـوْنُ
إنْ أَلـقَ يُسْـراً فالعـدُوُّ لـه وَفَـا أَو أَلـقَ عُسْـراً فالصَّـدِيقُ يُخُـونُ[2]

وشكا أبو إسحاق بن أبي العز المستوفي الإربلي (كان حياً سنة ٦٥٤هـ)، همه إلى الله سبحانه حين أتعبه هجر الأصدقاء، وقاسى هماً اغترابياً لعجزه عن إيجاد صديقٍ وفيٍّ، إذ يقول: (الطويل)

إلـى الله أشـكُو مِـنْ هُمـومٍ تواصـلتْ أَمـا تغلـطُ الـدُّنيا لنـا بصـديق
لقـد خـانني لمَّـا هجـرْتُمْ مُواصـلي وقـد صـدَّ عَنِّـي مَعْشَـري وفريْقِـي
فواحَرَبـا كـم تضْـرمُون بصَـدِّكُم وإعراضِـكم فـي القلـب نـارَ حريـق
أُقاسـي هُمومـاً مـن أُنـاسٍ فِعـالُهُمْ قـذى لعيـونٍ أو شـجى لِحُلـوقِ[3]

---

(١) قلائد الجمان، مج٦، ج٧، ص٨٩.

(٢) قلائد الجمان، مج ٨، ج١٠، ص٣٠٦، وهو يوسف بن نفيس بن أبي الفضل بن السعود بن أبي المعالي المرَّلي من أهل إربل ولد سنة (٥٨٦هـ) كان يقدر على نظم ما شاء من غير فكرة ولا روية وكان شاعراً خليعاً ظريفاً رحل إلى البلاد وامتدح الملوك وأقام بالموصل مات سنة (٦٣٨هـ) ، ينظر: م. ن، ص٣٠٤-٣٠٥.

(٣) م. ن، مج ١، ج١، ص١٥٠، وهو إبراهيم بن المظفر بن موهوب أبو إسحاق بن أبي العز المستوفي الإربلي ولد سنة (٥٩١ هـ) وهو ابن أخ الصاحب شرف الدين أبي البركات الإربلي حفظ القرآن وتولّى التصرف لأمراء بلده، ينظر: م. ن، ص١٥٠.

وهذا التلون في طباع الناس دفع الشاعر قاسم الواسطي (-٦٢٦هـ) إلى اليأس في أن يجد فيهم ما يصبو إليهمن خيرٍ حين رآهم يظهرون وجهاً حسناً، ويخفون ما هو أَقبح منه، فوصفهم متلاعباً بالألفاظ في قوله:

(الخفيف)

لا تُـرِدْ مـن خيـار دهـرك خيـراً ... فبعيـدٌ مـن السـراب الشـرابُ
رونـقٌ كالحبـاب يعلـو علـى الكـأ ... س ولكـن تحـت الحَبـاب الحُبـابُ
عَـذُبَتْ فـي النفـاق ألسـنةُ القـو ... م وفـي الألسُـنِ العِـذاب العـذابُ[1]

ولأن الكرم صفة عربية إسلامية، لازمت العرب على مرِّ العصور، نجد الشعراء يطلبونها في مجتمعاتهم، إذ حاولوا من خلالها بيان مثالب المجتمع وعيوبه حين وجدوا أَنَّ الكرم ضاع بين الناس، ولم يبق سوى اللئام، كقول النشابي:

(الوافر)

وكـم مـن قائـلٍ: هـل مـن كـريم ... أَراه، فحسـرتي أَلقـى كريمـا؟
فقلـت لـه: كـريمٌ مـا تـراهُ ... ولكـن كيـف دُرتَ تـرى لئيمـا[2]

ونلمس في هذه الأبيات نظرة تشاؤمية لإحساسه باليأس والاغتراب لا سيما وأنَّ الناس قد تطبَّعوا بطباع لا تتفق مع ما توارثته العرب من حبِّ الكرم والإيثار.

وعبَّر عبد القادر بن أميري أبو محمد الإربلي (-٦٢١هـ) عن خيبة أمله حين فقد الرجاء في طلب نوال جاره، إذ يقول:

(الوافر)

(١) فوات الوفيات، الكتبي ١٩٢/٣، الرونق الجمال، الَحباب: الفقاقيع التي تطفو على وجه الماء أو الخمر، الحُباب: الحبَّة. وهو القاسم بن القاسم بن عمر بن منصور أبو محمد الواسطي ولد بواسط سنة (٥٥٠هـ) ، كان أديباً نحوياً لغوياً فاضلاً من تصانيفه (شرح اللمع) لابن جني، و (شرح التصريف الملوكي) ، توفي بحلب سنة (٦٢٦هـ) ، ينظر: م. ن، ١٩٢/٣-١٩٤.

(٢) ديوانه (رسالة) ص٣٣٣.

لنـــا جيـــرانُ سُـــوءٍ لا نُبَـــالي ... بِصـــــحَّتهم لأَنَّهُـــــمُ كَسَـــــالي
رَجـوْتُ نـوالَهُمْ مـن فـرْطِ جَهْلـيْ ... ودُونَ نـــوالِهِم طعـــنُ العـــوالي
لقـد صـدقَ الـذي قَـدْ قـالَ قبلـي ... مقالـــةَ رب صـــدِّقْ فـــي المقـــال
أَمـــن دار الكـــلاب تُريـــدُ عظمـــاً ... لقـــد أطعمـــتْ نفســـكَ بالمُحَـــال
رجونـــــاهم يُعِيْنُونَـــــا فبـــــاعوا ... هـــــداياهُم بـــــأنواع الضَّـــــلالِ[1]

وكان القاسم بن القاسم الواسطي يتأسف ويندب الكرام الذين ضاع الندى بفقدهم، في صورة كالترجمان للواقع المؤلم للمجتمع آنذاك وتعكس في الوقت نفسه حسه الاغترابي، حين يأس أن يجد من يسعى لإحياء تلك السنن إذ يقول:

(الطويل)

فـوَا أَسـفا مـات الكـرامُ وعُطِّلـتْ ... شـــرائعُ سُـــنَّتْ للعُـــلا والمكـــارمِ
ولـمْ يبـقَ مـن رَسْـمِ النَّـدى وطُلُولـه ... ســوى ذكــرٍ مــنْ عهــده المُتَقــادمِ
سـأَنْدُبهُ مـا عِشْـتُ جُهْـدي وإن أَمُـتْ ... أَقمــتُ بأشــعاري صُــفُوفَ المــآتمِ[2]

ويبدو أن بيئة الشام شابهت بيئة العراق بطباعها، إذ نجد ذلك الإحساس المؤلم يتنامى عند ابن دنيزير اللخمي و هو في غربته،حين أضحى ينتقد الناس لاستبدال الجود باللؤم والجهل وفعال الزور، لذلك شعر بغربته بينهم، إذ يقول:

(الرمل)

لـم أجـد فـي الشـام مَـنْ يُرجـى لـه ... جـــودُ كـــفٍّ لفتيـــلٍ أونقيـــر
خُلِقـــوا لَلِـــوم طُـــراً والخنـــى ... ومقـــالِ الـــزور والجهـــلِ الغزيـــرِ
ودمشـــقُ جنَّـــةٌ قـــد مُليـــتْ ... مـــن أهاليهـــا بأربـــاب الســـعير[3]

(١) قلائد الجمان، مج ٣، ج٤، ص٣٣، كسالي: جمع كسلان، وهو عبد القادر بن أميري أبومحمد بن أبي الخير الإربلي ولد بإربل سنة (٥٨٤هـ) ، كان رجلاً صالحاً من الفقهاء المتعبدين،محدثاً، له طبع في النظم من غير اشتغال بالأدب،توفي سنة (٦٢١هـ) ، ينظر: م.ن، ٣٣-٣٤.

(٢) م. ن، مج٤، ج٥، ص٣٥٥.

(٣) ديوانه (أطروحة) ص٥٧٦.

إن مرارة اللؤم والدناءة قد تجعل النفس تترفع عن الدنايا، لذلك فإن النفس الأبية ولإحساسها بالواقع المسيء حين يحمل ذلك التخلف، تأبى على الآخر أن يتطبع بها، كونه يمثل سلوكاً اجتماعياً مشيناً قد تضعف فيه الذات، فتظهر النفس جزعها واغترابها الممزوج بالأسى حين تخرج الطبيعة الإنسانية عن جادتها في سلوك اجتماعي مشين يوحي بنفس إنسانية غير سوية، اخترقت عرفاً اجتماعياً أصيلاً.

ويبدو أنَّ رؤية الشاعر الرافضة للواقع قد تمثل ضرباً من المواجهة النابعة من صلب المعاناة، فالتزامه الذاتي بالقيمة المفقودة على مستوى الحياة الاجتماعية توحي بسطوة القيمة المقابلة في ذلك الظرف، وقد تأتي صيحة الشاعر تبعاً لهذا الأساس مجلجلة، وبسبب اغتراب تلك القيمة خارج ذاته، مما أحاله إلى إنسان مغترب عن واقعه الاجتماعي، وقد يعزز هذه الرؤية تواتر المواقف السلبية على مستوى الحياة العامة، إذ تتأجج حالة الصراع عندما يشعر الإنسان بضياع بعض القيم الاجتماعية الأصيلة[1]. والتي كانت تمثل ركيزة التعاملات السائدة التي بُنيَ على أساسها النظام القيمي السائد في المجتمع آنذاك وتتبدل بقيم دخيلة تتعارض والطبيعة الإنسانية السليمة وتلك هي التي تعرض لها الشعراء كالبخل والغدر والظلم اللؤم والوشاية، عاكسين من خلالها حالتهم النفسية المشوبة بالتوتر وعدم الاستقرار، وعبرَّ رضي الدين بن طاووس (-٦٦٤هـ) عن اغترابه بين الناس حين رأى تخلقهم بطباع غريبة، فراح يندبهم بطرافة مثيرة معبِّراً عن استغرابه وتعجبه لسلوكياتهم من خلال ألفاظ الدين والعلوم، إذ يقول:

(الوافر)

خبــتْ نــارُ العلــى بعــد اشــتعال ... ونــادى الخيــرُ حــيٍّ علــى الــزوال
عــدِمْنا الجــودَ إلاَّ فــي الأمــاني ... وإلاَّ فــي الــدفاتر والأمــالي
فيالِيــتَ الــدفاترَ كُــنَّ قومــاً ... فــأثرى النــاسُ مــن كــرم الخصــال
ولــو إنــي جعلــت أميــر جــيشٍ ... لمــا حاربــتُ إلاَّ بالســؤال
لأَن النــاس ينهزمــون منــه ... وقــد ثبتــوا لأطــرافِ العــوالي[2]

(١) ينظر: الاغتراب في الشعر الجاهلي (أطروحة) ص١٠٩.
(٢) البابليات، لليعقوبي ٦٤/١، ترجم له، وينظر: المعنى نفسه ديوان ابن الظهير الإربلي، ص٨٢، ديوان أبو اليمن البغدادي، ص٥٧، شعر الجزري، ١٢٠-١٢١.

فالشاعر هنا يُعبِّر عن تجارب حياتية مريرة متأثرة بالواقع المر وممزوجة بإحساسه المرهف حين صقل شاعريته بتلك الروح المغتربة النابضة بالوعي والحيرة إذ أنَّ (ثمة تفاعل بين الاغتراب عن الذات والاغتراب عن المجتمع،ومردَّ ذلك إلى أنَّ الفرد عندما يغترب عن ذاته فإنَّ اغترابه ينعكس على المجتمع الذي يعيش فيه ويؤثر {في} تواصله من الآخرين)[١] فالشاعر يعيش فيما يشبه التوتر بينه وبين المجتمع[٢]، وهو يمتلك عمق الإحساس بالتجربة والتعبير عنها تعبيراً فنياً يتزامن مع حالته النفسية وشعوره الصادق بالحياة والناس، فالاغتراب الاجتماعي (يتمثل في الشعور بعدم التكافل الاجتماعي أو الشعور بالاغتراب عن الآخرين،ويقابله الشعور بالانتماء إلى الآخرين)[٣]،فالاغتراب أحد الأسباب التي تهدد النسيج الاجتماعي للمجتمع، ويتركز بشكل خاص في حالة تعرض الفرد إلى تجربة الانفصال بطريقة ما عن أفراد مجتمعه وثقافته العامة لذلك (فمن الصعب القول في هذه الحالة بان الفرد المغترب قد رفض واقع مجتمعه، أم أن مجتمعه هو الذي رفضه)[٤] وربما الأمرين معاً وذلك من أقسى أنواع الاغتراب، لأنه تعبير عن عجز الإنسان عن ممارسة وجوده الحقيقي أو المشاركة في صنع الحياة على الأرض فالشاعر فضلاً عن غربته الاجتماعية، فانه ومن خلال رؤيته الواقعية والشعرية يغترب اغتراباً نفسياً مصحوباً بأحزان متجددة وحيرة وتردد، ومستمداً من واقعه المؤلم انبعاثاً جديداً لروحه المغتربة، لذلك فأنَّ بعض الشعر يمثل مهمة إنسانية أَساسها النقد، فضلاً عن محاولة خلق موقف عقلي أو فكري ضد أَساليب الحياة التي أمست تبنى على أُسس خاطئة.

وقد ضعف الوازع الديني لدى بعض رجال الدين الذين فقدوا مصداقيتهم عندما راحوا يسوغون للمؤسسة السياسية كثيراً من الأمور، كما دعا بعض الشعراء إلى بث شكواهم إلى الله سبحانه لإجلاء تلك الفتن، كقول الصرصري (-٦٥٦هـ): (الرجز)

---

(١) دراسة مدى الإحساس بالاغتراب، محمد إبراهيم عبيد (رسالة ماجستير) ص٢٣. ما بين القوسين على وتم تصويبه.

(٢) ينظر: دراسة في الأدب العربي، مصطفى ناصف ص١٢٠.

(٣) الاغتراب وعلاقته ببعض متغيرات الصحة النفسية، محمد احمد (أطروحة دكتوراه) ص٣٩.

(٤) الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً (بحث) ص٣٢.

أشـــكو إلـــى الله العظـــيم فتنـــةً ظلمـــاء كالليـــل إذا الليـــل ســـجى
كـمْ قـد بـدتْ فـي عصـرنا مـن بدعـةٍ مضـــلّةٍ ثـــمَّ إليـــك المُشـــتكى

أبـــرأ مـــن كـــلِّ هـــوى وفتنـــةٍ إليـــك يـــا مَـــنْ بهـــداهُ يُقتـــدى[1]

ووجد بعض الشعراء في اعتزال الناس مسلكاً أميناً يواجه به اغترابه، كقول الصرصري حين عاتبه بعض أخوانه على انقطاعه عن زيارته:

(الطويل)

سـكوني فـي بيتـي لقلبـي راحـةٌ وســترٌ مــن الله العظــيم لحــالي
أَكـفُّ عـن الإخـوانِ شـرَّةَ عثرتـي وأسـلمُ مـن قليـلٍ وكثـرة قـال
وأَحيـا عزيـزاً أُرى متعرِّضـاً ورزقـي يـأتيني بغيـر سـؤال
وإن أَنـا زرت النـاسَ فالنـاسَ فـيهم نصـيحٌ ومـذَّاقٌ وآخـر قـالي[2]

ووجد شمس الدين الكوفي خلاصه وراحته في اعتزال الناس، لذلك يقول:

(الخفيف)

اعتـزالُ الـورى سـبيلُ الخـلاصِ وطريـقُ الفتـى إلـى الخـلاصِ
أَنـا مـالي فبالتـاسِ هَمِّـي فـي ازديـادٍ وهَمُّهـم فـي انتقـاصِ
صـاحِ مـا أَطيـب التفـرُّد فـي الخُلـ ـلوة عـنهم ولـو بفعـل المعاصـي
أَنفـقُ الوقـتَ كلَّـهُ فـي مُـرادي مسـتريحاً مـن كـلِّ دانٍ وقاصـي[3]

---

(١) ديوانه (رسالة ماجستير) فراس عبد الرحمن النجار، ص٧٣، وهو أبو زكريا جمال الدين يحيى بن يوسف بن عبد السلام الصرصري البغدادي ولد سنة (٥٨٨ هـ) ، شاعر ضرير، ألمَّ بعلوم القرآن والحديث والأدب تميز بذكائه الحاد وحفظ صحاح الجوهري، اشتهر بمدائحه النبوية، استشهد على يد التتار سنة (٦٥٦هـ) ، ينظر: م. ن، ص٤-١٥.

(٢) فوات الوفيات ٣١٥/١-٣١٦، ولم نجد هذه الأبيات في ديوانه المحقق في جامعة الأنبار، وما يؤلم أن الظلم أبى إلا أن يلاحقه في حياته وبعد مماته، حين لم يعط ما استحق من حقٍ في الشهرة، وأجد أن محقق ديوانه زاده ظلماً حين قدم له بدراسة فقيرة تغافل فيها عن الكثير من أشعاره المتناثرة في أُمهات الكتب.

(٣) ديوانه ص٤٧، وهو محمد بن أحمد بن عبيد الله الهاشمي الحنفي الكوفي ولد سنة (٦٢٣ هـ) ، تولى التدريس في المدرسة التتشية (وهي من مدارس الحنفية في بغداد) وتسلَّم الخطابة في جامع السلطان،

ولنا أن نتصور شدة اغتراب عبد الله بن أحمد أبي حامد الموصلي النحوي، حين فاقت بلوى الناس حدود تصوره وقدرة تحمله، فغض الطرف عنهم، وعاش في وسط عالمه متحملاً وحدته واغترابه على أن يرى أو يسمع ما لا يطيق، إذ يقول:

(المتقارب)

وإنِّـــي لمَّـــا بلـــوتُ الأنـــا ... مَ طلَّقـــتُ كُـــلَّ أُنـــاسٍ بتاتـــا

فمـــن جـــاء جـــاء ومَـــن راح راح ... ومَـــن عـــاشَ عـــاشَ ومـــن مـــات مـــات[1]

ولأنَّ الشعر يُعبِّر عن بعض الحالات النفسية التي عاشها أو يعيشها الشاعر، والتي تأتي متأثرة ببعض المفاهيم التي يستقيها من بيئته[2]، إذ أنَّ العلاقة بين مفاهيم مجتمع معين ومواقف رد الفعل تبدو جلية لا يمكن تغافلها.

لذلك نجد أنَّ بعض الشعراء أَتكأ على الهجاء حين أحسَّ أن دافعه في ذلك هو إزاحة همٍّ أو أفراغ مكبوت بات كامناً في نفسه، لاسيما وأن الهجاء أضحى يحمل في جذوره بعض مضامين الاغتراب، كرد فعل لقول أو فعل، ذلك أنَّ مفاهيم التخلي والتنازل والإحباط عن أبداء الرأي ترتبط بغربة الشاعر النفسية، وتدفعه نحو الاغتراب والانزواء إلى ما دون ذلك بالنقد أو الذم، فيلتجئ إلى الهجاء تحت سطوة الباعث النفسي وفي محاولة للتعبير عن معاناته وإفراغ إحساسه وألمه[3]، وما امتلأت به النفس من هموم وإحباط أدَّيا به إلى الاغتراب من خلال النقد اللاذع، ذلك أن الشعر الأصيل يُعبِّر دائماً عن أحوال المجتمع وآلامه.

فقد أظهر الصرصري اعتصار روحه الشديد من انقسام المجتمع إلى شيع كثيرة، بسبب تلك العادات التي تسيَّدت في المجتمع وأثمرت روح الجفاء والقطيعة، إلى تفكك

وتبوأ مقعد الوعظ والإرشاد بباب بدر (أحد أبواب الخلافة العباسية) توفي سنة (٦٧٥هـ) ، ينظر: م. ن، ص٩-١٣.

(١) قلائد الجمان، مج ٢، ج٣، ص٢١٦-٢١٧، وهو عبد الله بن أحمد بن علي بن أبي الحسين أبو حامد الموصلي النحوي ولد سنة (٥٥٣هـ) صناعته عمل القلانس، رجل عاقل له معرفة وعلم حسن ويعمل الإشعار لن تشر المصادر إلى سنة وفاته إذ كان حياً سنة (٦٢٠هـ) ، ينظر: م. ن، ص٢١٦-٢١٧.

(٢) ينظر: الايجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام ص١٥.

(٣) ينظر: الاغتراب، أحمد أبو زيد (بحث) مجلة عالم الفكر، ص٢٠-٢١.

المجتمع، إذ قول:

(البسيط)

فـــأَنني فـــي زمـــانٍ أهلـــه شـــيعٌ ودَّ التقـــي بـــه لوضـــمه الحجـــرا[1]

أما الجزري الذي قضى شطراً من حياته في بغداد، استطاع أن يكشف أغوار المجتمع من خلال إبراز مظاهر الانحلال والفقر والاحتيال، ورواج النفاق والتزلف وتحكُّم الجهلاء، والذي أدى به إلى ذمِّ الناس من خلال لومه لنفسه كونه قضى حياته بينهم، إذ يقول:

(الطويل)

فيـاليتني لـم أَحـي فـي النـاس بعـدما تنـــاءتْ جمـــوعُ الجَـــدّ عنـــي وولـــت

ويـاليتني لمـا أمتطـى قتْـب صـبيتي مطـي الطـوى وسـدتُ فـي التـرب تربتـي

فـلا خيـر فـي عـيش أبيـتُ موسـداً بـــه جمـــر جـــان أن توالـــت تولـــت[2]

في حين صبَّ ابن دانيال جلَّ غضبه على قومه واصفاً إياهم بالبخل، عاكساً بذلك شخصيته الهجائية، ومؤكداً حالة الاغتراب التي كان يعانيها تجاه قومه، إذ يقول:

(الكامل)

مَـنْ مُنْصـفي مِـن مَعْشـرٍ أَلْبَسـتُهمُ مـــدْحي وظنِّـــي أنَّهـــم كُبـــرَاءُ

قـــالوا ومـــا فعلـــوا لِبُخـــلٍ فـــيهم فكـــأنهم كـــانوا هـــمُ الشُّـــعراء[3]

إذ كان يرتجي منهم ما يضاهي مدحه لهم حين أكساهم من سمات المدح ما يميزهم من غيرهم، لكنه لم ينل منهم سوى كلاماً دون عطاء.

---

(١) فوات الوفيات، ٣١٧/١، والبيت غير موجود في الديوان.

(٢) شعر الجزري ص٥٠، الجَدّ: بفتح وتضعيف: الحظ أو الحضوة، قتب: بكسر فسكون: المعي، مذكر وقد يؤنث، الطوى: الجوع، جان: مقترف ذنب، أي يتعذب عذاب من ارتكب ذنباً.

(٣) المختار ص٢٣٠، وينظر: في المعنى نفسه، ص١٠، ٩٣، ٩٥، ٩٩، ١٣٤، ٢٣٤، ديوان شمس الدين الكوفي ص٥٢.